المرأة القبائلية في العهد العثماني: عادات ومعتقدات

Kabyle women in the Ottoman era: customs and beliefs

La femme kabyle au cours de l'époque Ottomane: traditions et croyances

ط.د. كيسة بولجنت

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

تاريخ الإرسال: 30-05-2019– **تاريخ القبول:** 10-12-2019 - **تاريخ النشر:** 28-11-2021

ملخص

عاشت المرأة القبائلية في ريف منطقة القبائل وفق عادات ومعتقدات لا تحيد عنها، ذلك أنها تربت وفقها وكبرت على احترامها وعليها واجب ترسيخها في تربية أبنائها فكما تربت يجب أن تربي. تستمد هذه العادات والمعتقدات مصدرها من الأعراف التي تسير المجتمع، وتحدد اتجاهاته وما تقر ما هو صالح لأفراده. نتناول في هذه الدراسة خصوصية حياة المرأة القبائلية في سياق هذه العادات والمعتقدات خلال المرحلة العثمانية. فما هي أهم العادات التي تمارسها وأهم المعتقدات التي تحدد نمط عيشها؟ والى أي حد انصفت هذه القوانين العرفية هذه المرأة ؟

الكلمات الدالة: المرأة القبائلية، العادات والتقاليد، المعتقدات، منطقه القبائل

Abstract

The Kabyle woman has lived in the Kabylie companion according to the customs and beliefs, because she has been educated and enlarged to her respect, she must consolidate her ideas to her children. The origin of these beliefs and customs are the customs that direct the society and indicate its destination, which is for the benefit of society. then the Kabyle woman has bound herself to laws that are indissociable, so the problem raised: what is the specificity of the life of the Kabyle woman in her region? what are the main customs and beliefs that determine one's way of life? to what extent did his laws and customs align the woman?

Keywords: Kabyle woman; tradition and customs; the beliefs; the Kabyle region.

Résumé

La femme kabyle a vécu selon les traditions et les croyances qu'elle a reçu de son éducation et qu'elle doit transmettre à ses enfants. L'objet de cette

contribution est d'étudier son vécu au cours de la période Ottomane à travers l'identification des traditions qu'elle applique et les croyances auxquelles elle adhère. L'objectif recherché est de connaitre la place que ces traditions et croyances réservent à la femme kabyle.

Mots-clés: femme kabyle; les traditions et les coutumes; les croyances; la région des kabyle.

مقدمة

عاشت المرأة القبائلية في ريف منطقة القبائل وفق عادات ومعتقدات لا تحيد عنها، ذلك أنها تربت عليها وكبرت على احترامها وعليها واجب ترسيخها في أبنائها فكما تربت يجب أن تربي، وفق ما هو مسموح به وما هو ممنوع يجب الابتعاد عنه، ومرد هذه العادات والمعتقدات هي الأعراف التي تسير المجتمع، وكان للأعراف في منطقة القبائل دور أساسي في تحديد الوضعية الاجتماعية للمرأة القبائلية فالسكان في منطقة القبائل وبالخصوص النواحي الجبلية منها قيدوها بسلسلة من العادات والمعتقدات لا تحيد عنها، وإلا بقيت في بيت أهلها عرضة لسخرية الآخرين، ذلك أن حياة المرأة من ميلادها إلى وفاتها محددة وفق ما يمليه عليها المجتمع، حتى أنها لا تختلف في تفاصيلها من امرأة لأخرى، وان اختلفت فالسبب يعود لتمردها أو لشخصية والدها أو زوجها[1].

1. حياة المرأة القبائلية

لا تخرج حياة المرأة القبائلية عن نمط الحياة المرأة في المجتمع الجزائري على العموم يمكن حصر هدا النط في مرحلتين: مرحلة طفولتها ومرحلة انتقالها لبيت الزوجية.

1.1 مرحلة الطفولة

يمثل ميلاد الأنثى مثارا للحزن والغم، وكأن مصيبة حلت بالعائلة، فيكتئب كل من في البيت بهذا الخبر حتى أن الجيران والأقارب يعزون الأب أو والديه بهذا الخبر السيئ(Daumas; fabar, 1847)؛ ويلومون الأم على عدم قدرتها على إنجاب طفل ذكر يحمل اسم العائلة ويدافع عنها مستقبلا، حتى أنها تشعر بالذل والهوان، والخوف كذلك لأن

1- منطقة القبائل بلاد شاسعة تقع في الوسط الشمالي الشرقي من الجزائر، تمتد من وادي يسر غربا إلى وادي اغريون وجبال البابور شرقا، ومن البحر المتوسط شمالا إلى سلسلة جبال البيبان وهضاب سطيف وسهول مجانة جنوبا، حيث تمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة قدرها 150 كلم، وعمقها من الشمال إلى الجنوب يتراوح ما بين 70 إلى 100 كلم.

ذلك يمكن أن يؤدي بها إلى الطلاق، والعودة إلى بيت أهلها مطأطئة الرأس[2] ويمكن أن تعلق بها صفة تكرهها كل النساء وهي أنها تنجب فقط الإناث فتكثر الساخرات منها كلما قابلنها خصوصا عند الينابيع أكثر مركز للتجمع، كما أنها تصبح مطردة للرجال الذين يمكن أن يودوا الارتباط بها، أما إن كان حظها جيدا فإنها تبقى في البيت وسط أنظار العائلة الحاقدة عليها، فلا تحظى بأي اهتمام أو مساعدة، أما بالنسبة للبيت فإنه لا يتغير شيء فيه وكأنما لا يوجد به أي جديد.(جلاوي، 2001)

أما المولودة فتقضي سنوات الطفولة في بيت أهلها في إطار تربية صارمة، تعود أسبابها إلى الهدف الذي ستكبر للقيام به وهو وظيفتها في بيت الزوجية، لذلك فإنها لا تتلقى أدنى اهتمام في مقابل الاهتمام الذي يلقاه الطفل، إلا في حالة تعبئتها بالأشغال، وأعمال البيت وإن كانت تبكي فلا تسرع الأم لإسكاتها وحتى إن رغبت بذلك فهي تمنع وتنهر على ذلك، على أساس أن على الطفلة أن تتعلم الصبر، وعلى هذا فإنها تبكي إلى غاية أن تسكت لوحدها، لأنه في نظرهم الضرب والقسوة يعلمانها الطاعة والخضوع للزوج عندما تكبر(Daumas, Fabar,1847) إلى جانب الطاعة والخضوع لا تعلم الأنثى مثل الذكر إطلاقا، فالتعليم للذكور فقط، أما هي فتتربى على مفاهيم معينة مثل الحرمة، العيب، الشرف، الاحتشام والحرام (بداك، (د.ت)). وعلى أهم شيء تتعود عليه وهو النظافة فلا يجب أن تظهر بمظهر غير لائق(مجهول، تحت رقم3012)، فعليها أن تغتسل دائما وتهتم بنظافة محيطها.

وهنا تكبر الطفلة وسط الانتقادات والصرامة المبالغ فيها وتتغلغل في ذهنها أفكار معينة لا تحيد عنها لتعيد هي نفسها حينما تكبر دورة الحياة، بنفس تفاصيلها كما تمت تربيتها ستربي، وكما قست عليها الحياة ستقسو متناسية حينها ذلك الألم الذي عاشته لسنوات، فتلك القواعد التي عاشت على عدم تخطيها من بين ما فيها انه من مهامها تربية أولادها على هذه القواعد وبالخصوص الإناث منهم.

2- يكمن الاختلاف في قدرة المرأة على إتقان عملها والإبداع فيه مما ييسر عليها الحياة لكونها محمودة على الدوام، حتى أن ثناء الآخرين يزيد من شأنها في بيتها وشأن زوجها الذي اختارها وأحيانا يثنى على والديها اللذان ربياها، على عكس بعض النساء اللواتي يكن مصدر إزعاج للأزواج خصوصا إذا لاحظوا الفرق بينهن وبين المبدعة.

2.1 المرحلة الثانية بيت الزوجية

الأنثى منذ ولادتها تمثل سببا لقلق العائلة بسبب شرفها المهدد للبيت بأكمله، لذلك فهي عبء كبير وثقيل عليهم(بداك، (د.ت))، يجب التخلص منه قبل أن يسبب انتهاكه خراب العائلة والقبيلة ككل، لذلك فالأب عند ولادة ابنته يخطبها لشخص ما ،لطفل ما وعندما تصل إلى سن التاسعة أو العاشرة، يقوم الأب بإعلان خبر الزواج بعد تشاوره مع أهله وأقاربه (Daumas, Fabar, 1847)، أما هذه الطفلة فتكون آخر من يسمع بخبر زواجها، حتى أنها لن تسمع باسم زوجها المستقبلي إلا عند ترديده فيما بين أفراد العائلة، لأنها غير ملزمة بأن تعرف كل شيء، لأن الزواج بالذات هو مسألة خاصة بالجماعة وليس بها هي، فهي إطلاقا لا تدلي برأيها في هذا الموضوع، ذلك أن الأب يتولى كل شيء، وإن غاب هذا الأخير يتولى الإخوة أو الأعمام تزويجها(بداك، (د.ت))، وذلك حسب ما يرونه لصالح العائلة الكبيرة وسمعة وشرفها، وبطبيعة الحال ليست مصلحتها هي[3]،لأن الزواج يمثل لديهم عاملا لتوطيد العلاقات بين العائلات والمجموعات القبلية (Hanotaux, letourneux, (s .d)).

هذا ويتم الزواج وفق مراسيم معينة ليست من اجل العروس نفسها إنما تماشيا مع ما يقتضيه المجتمع أو مظهرا من مظاهر القوة، وهكذا تصل الطفلة إلى بيت زوجها لتبدأ حياة أخرى يتخللها بعض الفرح وسط ألامها وأحزانها ومسؤولياتها،ذلك أن أول يوم تقضيه المرأة في هذا البيت هو بداية لمرحلة تكوين أسرتها التي تضعها على المحك، لتعيش ما عاشته أمها حينما رزقت بطفلة أو أن تعيش حياة ملؤها السعادة والثناء المتواصل إن رزقت بمولود ذكر، أو كان اغلب أبنائها ذكورا سيكبرون ليحتفظوا بنسل أبيهم، وهنا تزداد مكانتها لدرجة أن والدي الزوج يدافعان عنها حتى ضد ابنهم إذا أراد أن يطلقها دون سبب مقنع وحتى أخوات هذا الأخير رغم أنهن في الغالب لا يرحبن بوجودها، إلا أنهن في مواقف كهذه يساندن زوجة أخيهن.

3- ورد في كتاب أمحمد جلاوي ص 187، الأبيات الشعرية التالية حول اختيار الزوجة:

فالزواج بالتروي أيها الحاذق فحذار من ذات الأصل الوضيع

حتى وان دللتها كل يوم فلا بد أن توصمك بالعار وتخدع

فالزواج الأفلح بنت الحسب بنت النبلاء والأجواد

أما المرأة العاقر فإنها ترى بصورة سيئة في الأسرة، لأن مثل هذه المرأة في اعتقادهم تبعد الخير والرحمة عن البيت، فيعيشون في بؤس لأن الأطفال يضفون على البيت البهجة والحركة، لذلك فمثل هذه المرأة تعود إلى بيت أهلها إلى أن يحالفها الحظ برجل متقدم في السن قد سحر بجمالها أو من اجل أن تعتني بأولاده الأيتام[4]، وليس هذا فقط فعلى المرأة أن تكون على مستوى المسؤولية، لأن قيمتها تظهر في مدى إتقانها لعملها الذي يتمثل في أشغال البيت وقدرتها على استمالة قلب زوجها ونباهتها وتفوقها الذهني(مجهول، تحت رقم3012)، وكلما وصلت لذلك تكون راضية عن نفسها وهو الشيء الذي رجح دوماس سببه إلى كونها لم ترى عوالم أخرى مختلفة عن عالمها وتسير عكس حياتها (Rahmani , 1937) ذلك أنها منذ ولادتها وهي تسير على المسار الذي وجدته جدتها وأمها وهي نفسها، وتعيش هذه المرأة التي دخلت المرحلة الثانية من حياتها وهي طفلة على تربية أولادها وطاعة زوجها وسط معتقدات كثيرة، تبنتها بحذافيرها وأخرى ستتعلمها من تجاربها، أما بالنسبة للمرأة المطلقة فمصيرها متوقف على قرار الزوج، إن أراد الفراق النهائي معها، أو عدم التفريط فيها إن أراد معاقبتها، وان رضي بالفراق كذلك تتوقف الموافقة على مقدار المهر المقدم له (جلاوي، 2001)، أو الشخص الذي سيتزوج بها، ففي العادة إذا أحس الزوج المطلق برغبة رجل ما بالزواج من طليقته وميول هذه الأخيرة

4- ورد في كتاب امحمد جلاوي ص 206 من الأبيات الشعرية ما يلي:

يا أمي الحنونة
زوجوني من غير علمي
ولقد قرأوا الفاتحة
على مرأى عيني
واختاروا لي البرقش زوجا
فغدا علي بالفرار
يا أمي الحنونة
حسرتي لما تزوجت من رابح
نهارا يلف نفسه في البرنوس
وليلا يطفئ المصباح
أضحي بهذا العام في بيته
والعام المقبل يأتي دور الفرار

للارتباط به فإنه يرفضه تماما ويعسر عليه الزواج، حتى يتدخل أعيان القرية(Daumas; fabar, 1847).

أما إذا رفض الزوج الطلاق أصلا وأصرت زوجته على ذلك، وعلى مغادرة البيت فإنها تحمل لقب المتمردة، ويفقد الأب بذلك حق التصرف في أمرها فتبقى تحت تصرف زوجها، ويصبح حرا في أن يشترط أي مبلغ مقابل حريتها، وعادة يطلب مبالغ تعجيزية حتى تبقى تحت إمرته ويحرمها من حق الزواج(مجهول، ورقة رقم 3012)، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ففي بعض القبائل إن مات الزوج يستلم ورثاؤه القضية ويواصلون المطالبة بذلك المبلغ (Daumas; fabar, 1847). وفي الحالات الطبيعية إن اختفى الزوج فإن زوجته لن تتزوج ثانية إلا إذا ثبتت وفاته فعليها أن تنتظره إذا غاب، حتى وان كان ذلك لسنوات، فإن كانت حالتها مزرية، فلا يقوم أهلها بشيء حيالها إلا مساعدتها بما يعينها على الحياة، أما إن كانت من قرية أخرى فتبقى حالتها بائسة إلى أن يقدم لها عمل ما أو تساعدها القرية بمبلغ ما كلما توفر لها.

لكن على العموم سكان القبائل كانوا يسمحون لنسائهم بالخروج من البيت للقيام بالأشغال اليومية، أو حتى التسوق لشراء مستلزمات البيت(Camp,1980)، فقد منحن وسط كل تلك التعقيدات حرية مطلقة خاصة وأنهن يتمتعن بقوة جسدية تجعلهن يستطعن الدفاع عن أنفسهن عند اللزوم، وقوة شخصية يكتسبنها منذ صغرهن، وهذه الصفات تنطبق عليهن بين الغرباء، أما مع العائلة فهي ملزمة ب الأعراف،لكن هذا لا يعني أن الرجال لا يغارون على نسائهم، فمع كل هذه الحرية الممنوحة عرف الرجال بغيرتهم الشديدة على نسائهم خصوصا في جبال القبائل[5]، فالحروب كثيرا ما تقع بسببهن، فالنساء الجزائريات عامة لهن ميزة جمال القامة واعتدالها، وبعد ذلك يأتي جمال العينين، والحواجب الكبيرة والأسنان الجميلة(شالر، 1982) وهي نفس مواصفات المرأة القبائلية، المعروفة بجمالها، خصوصا جمال الحواجب المقوس

5- ذكر صاحب مخطوط كيفية سيرة الزواوة في الورقة رقم 03 أن الزوج إذا ما عسر ارتباط رجل بزوجته السابقة واستعمل كل الوسائل معه ولم يرضى، فأنه يلجأ للتحايل عليه، وذلك انه يقوم بعلم الأعيان بإحضار رجل من خارج قريتهما لا يعرفه الزوج ويطلب يد طليقته ونكاية في الرجل الأول يقبل الزوج هذا العرض، وبعد إتمام مراسيم الزواج تزف المرأة إلى بيت الرجل الأول الذي لم يرضه الزوج.

الكثيف((Hanotaux; Letourneux, (s.d.) فالمرأة هناك تصل إلى النضوج في وقت مبكر، لكن يقابل هذه السرعة سرعة في الذبول (جلاوي،2001).

لكن رغم صعوبة الحياة ومشقتها إلا أن النساء كن يضفن على حياتهن بعض الفرح والتسلية، فقد كن يحفظن أغان معينة يرددنها أثناء عملهن في إدارة الطاحونة لطحن القمح وخلال النسج وعند خدمة الفخار وجني الزيتون(شالر، 1982) وان الفتيات العازبات منهن يقمن بجني الزيتون وسط أريج من الأغاني والموسيقى يختتم بالرقص عند نهاية هذه العملية(الزواوي، 2005).

كما أنهن حين يقمن بجمع المادة الأولية لصنع السلال والمكانس من الجبال، فإنهن يجعلن من ذلك مناسبة للاحتفال، فيتزين بما لديهن مثلما يفعلن في حفلات الزواج أو حلول الربيع وينطلقن جماعات إلى الجبال وطوال الذهاب والإياب يقمن بالغناء دونما توقف، ويرافق ذلك زغاريد تزيد من بهجتهن(Daumas; Fabar , 1847). هذا وقد عرفت النساء بإلمامهن بالشعر فقد كن يحفظن أشعارا معينة فيتسابقن في ترديدها أو التنافس في نظمها وتلحينها في آن واحد(شالر، 1982). فتكون أحسنهن التي لم تستطع أية واحدة التغلب على فصاحتها وحكمتها، وسرعة الرد على منافساتها.

2. لباس المرأة وحليها

1.2 اللباس

في ريف منطقة القبائل لا يمثل فقط مظهرا لأناقتها فقط، بل يعتبر اللباس الأكثر جمالا دليلا على براعة صاحبته، وإتقانها لعملها ذلك أن الألبسة هي من صنع يديها، فهي تقوم بجص الصوف ونسجه ثم صناعة ألبستها وألبسة زوجها(مجهول، 3012) أو أبنائها فهي تحاول أن تجعل زوجها أو ابنها يقف بين الناس وكله فخر ببرنسه الأبيض الناصع[6] المنسوج بإتقان، لذلك يمثل البرنس مظهرا لصلاح المرأة، حيث يضرب المثل بالنساء اللواتي ينسجن ملابسهن بأنفسهن وتكون غاية في الجمال والإتقان، ففي اجتماعات النساء كالاحتفالات مثلا، تحاول كل امرأة الظهور بمظهر مبهر للنساء الأخريات فكل

6- بالنسبة للبرنس كلما صبرت المرأة وجاهدت بغسل الصوف والاعتناء به، كان البرنس ناصع البياض وإلا كان لونه كالأبيض المتسخ المائل للاصفرار.

واحدة منهن تصبو لأن تكون سيدة الاحتفال. ومن اجل صناعته تقوم المرأة بطي القماش طوليا إلى قسمين، ويخاط الجانب المفتوح مع ترك فتحتين لإخراج اليدين منها،أما في الأعلى فتترك فتحة لإخراج الرأس ويتم التوحيد بين طرفي القماش في الكتفين بواسطة مشبك مصنوع من الحديد أو الفضة على حسب غنى لابسته. (Hanoteau; Letourneux, (s. d.))

بالإضافة لهذا يشد هذا اللباس في الخصر بحزام من صوف أو حرير حيث تقوم النساء بأخذ خيوط متنوعة الألوان ويضفرنها جميعا في ضفيرة واحدة مشكلة حزاما بكل الألوان، وهو في منظره هذا يكتسب جمالا وبهاء وفي العادة يتراوح طوله بين مترين إلى ثلاث أمتار، وتحت هذا اللباس تلبس المرأة قميصا وسروالا، كما أنها تجعل من ردائها هذا وسيلة لحمل الأولاد الصغار(مخالفة،2007)، ومن اجل ذلك يكون لباسها عريضا مفتوحا عند الصدر(Germaine Laoust – CHantréaux,1990) بسيط التفصيل متوسط الطول يثرى الصدر فيه واسفل الفستان بشرائط ذات ألوان زاهية من احمر وازرق واصفر. (مخالفة، 2007).

2.2 الحلي

تمثل الحلي في منطقة القبائل رموزا تجسد الحياة بأكملها بكل ما تحمله من فرح وحزن وخوف، فتلك الحلي هي نتيجة لفن ريفي عفوي تجسدت فيه مختلف العادات والتقاليد والمعتقدات التي رسخت في أذهان سكان هذه المنطقة، فمهما كان دافع ذلك الذي صنعها وتفنن فيها لتجارة ما فإن قيمتها الجمالية والرمزية أكبر عنده من كونها مجرد وسيلة للربح(نسيب،2007). فالمجوهرات في هذه المنطقة هي تلك الحلي المصنوعة من معدن الفضة، لتوفره بشكل كثيف فيها فقد كانت حرفة صناعة الحلي الفضية تستقطب الكثير من السكان، ففي إحصاء يعود إلى القرن التاسع عشر تم إيجاد مائة وثلاثين ورشة لصناعة الحلي (بن ونيش، 1976).

ومع اختلاف السكان وشساعة المنطقة تعددت الطرق التي تفنن أصحابها في صناعة هذه الحلي والإبداع فيها، معبرين من خلالها عن تميزهم ومهارتهم في هذا المجال، ففي بعض المناطق كان صهر المعادن وصناعة الخيوط المفتولة يتم بطريقة علمية استوردت من المدن الأندلسية، كما استخدمت رسومات حلزونية طارئة على الفن القبائلي، وهو نفس التأثير الذي لحق الجهات الشرقية لمنطقة القبائل فقد اشتهرت

بالمغالق المرجانية التي كانت من نتائج حلول الأندلسيين بالجزائر أيضا(شلوصر،(د.ت))، لكن ومع اختلاف طريقة صنعها أو بعض التفاصيل الخارجية لها، تبقى لغتها واحدة تعبر عن هذه البيئة بكل ما فيها من تفاعلات اجتماعية(بن ونيش، 1976).

فالحلي تستخدم في العادة للزينة، لكن في منطقة تعيش وفق معتقدات وعادات معينة، استخدمت الحلي كمظهر يوحي بشكل مباشر إلى مكانة الفرد في المجتمع(عوف مخالفة، 2007) فقد كان يحلو للنساء ارتدائها وهن في كامل عزهن وتميزهن، بما يمتلكن وما وصلنا إليه، فالناظر من بعيد سيفرق بين الطبقات الاجتماعية من خلال حليهن، ذلك أن بعض الحلي لا يمتلكها إلا الأغنياء وذوي المكانة العالية في المجتمع، حتى أن المعاملات تختلف حسب المظهر، إلى جانب استعمالها كأداة لإظهار المكانة الاجتماعية كانت الحلي درعا يحمي لابسه من الأخطار كالسحر مثلا، فالحلي التي لها شكل يد مفتوحة استخدمت لدرء الحسد، ورأس الثعبان في الخلخال– حلقات الأرجل -رمزا للحياة والوجود، كما وقد استعملت الحلي في مناسبات معينة دونا عن الأخرى، بمعنى أن بعض الحلي تصنع وتوضع لمناسبات خاصة مثل موسم الزراعة وحلول الربيع، بالإضافة لكونها ترمز لوضعية المرأة في العائلة، إن كانت عروس مثلا أو أم لمولود ذكر أو حتى أرملة.

لكن رغم تعدد وظائفها إلا أنها كانت موحدة الألوان، فلا يستخدم في تزيينها إلا ألوان معينة لا يحيدون عنها، وهي ألوان زاهية كالأزرق والأخضر والأصفر، التي ترمز إلى الطبيعة الخلابة التي تأثر بها السكان اشد الأثر(بن ونيش، 1976)، كما استخدم اللون الأحمر في تزينها بالخصوص في الجهات الغربية للمنطقة والمرجان في الجهات الشرقية عوض اللون الأحمر.

وقد ذكر هانوطو أن الحلي المصنوعة من الفضة كانت تعتمدها العائلات الغنية في حين أن الفقيرة منها، كانت مجوهراتها مصنوعة من خليط بين الفضة والنحاس، إضافة لمعدن آخر، هو مزيج بين النيكل والزنك والنحاس(مخالفة، 2007) . منها الحلي التي توضع على الرأس كالتاج (نسيب، 2007) وهي عبارة عن صفائح مستطيلة منقوشة، مزينة بحبيبات المرجان البرتقالي الأحمر(مخالفة، 2007)، والنوع الآخر يغطي الجبهة ككل وتتدلى بعض أهداب الفضة فوق عينيها مباشرة، وتضع المرأة أقراطا معينة في الأذنين وهي

حلقات ضخمة من الحلي المصنوعة من معدن الفضة(نسيب، 2007) في معظم الأحيان أو من النحاس والحديد، وأحيانا من معادن أخرى(Rozet, Carette, 1850)، وتكون هذه الأقراط مستطيلة أو مستديرة، وتصنع ملائمة للعقد لتزيد من جمال الحلي من جهة والمرأة من جهة أخرى7.

أما بالنسبة للرقبة هنالك أنواع كثيرة من العقود مثل أزرار القرنفل مصنوع بعضها من الفضة ((Hanoteau, Letourneux, (s.d.)) مثل القرنفل التي هي عبارة عن شكل من الأزهار المتصلة يبعضها مشكلة عقدا وهنالك من الحلي من تصنع من خليط من الفضة آخر، فهناك مثلا العقد السلطاني الذي يمثل قطعة نقدية مثبتة على شريط صوفي، ويزين العقد بالمينا (نسيب، 2007) والمرجان وقطرات صغيرة على شكل فروع أو أهداب من العقد، وتستعمل المرأة كذلك بعض المشابك التي هي عبارة عن دبابيس في أعلاها حلقة تثبيت تشبه دائرة مفتوحة، تدخل أطراف القماش المراد تثبيته فيها، تتوج الدائرة بصفيحة عريضة أعلى من مستوى الدبوس، تأخذ شكلا مثلثا، في قمته زهرة على قاعدتها ساق صغيرة رفيعة جدا، أحجامها تختلف من مشبك لآخر، وحتى أن هنالك مشابك مستديرة، لكنها تزود بسلسلة من قطع المرجان تعطيها شكل شمس(مخالفة، 2007).

بالنسبة لحلي السواعد فإنها تتميز بحجمها الغليظ نوعا ما، فهنالك حلي للذراعين وهي عبارة عن مجموعة من الأساور تصنع بكل الأشكال الهندسية، حيث يختلف حجمها من حلي لأخرى((Hanoteau, Letourneux, (s.d.)) على حسب غنى المرأة، وهنالك أيضا السوار وهو جد مرتفع مزين بالمينا والمرجان لساقه حلقات رفيعة على شكل ثعبان، ولا تلبسه إلا المرأة الثرية، كذلك هناك الخلخال، لكنه للساعد، وهو سميك وجد مرتفع مزود

7- هنالك حلي من أنواع ثيمنقوشين تعرف باسم لونايس، وهي عبارة عن هلال من الفضة في حدود 12 خيط مشكلة هلالا، حيث يتم تعليقه في أعلى الأذن وأسفلها فتصبح 12 خيطا من الجهتين لكنها مع شكلها هذا تحدث فتحة كبيرة في أعلى الأذن وأسفلها بسبب ثقلها.

بمغلاق وهو الساق التي تغلق طرفي الخلخال، ويكون من نصيب الفتاة الكبرى في العائلة عند زفافها8.

إلى جانب هذه الحلي تستعمل المرأة القبائلية الأحزمة وهي مصنوعة دائما من معدن الفضة، يكون هذا الحزام ضيقا بالنسبة للنساء عموما وعريض بالنسبة للعرائس9،اما بالنسبة لحلي الرجل فهناك حلقات القدمين تعرف باسم أخلخال، ويكون تقريبا بنفس مواصفات أخلخال الذي يوضع للساعد، وهي غير منتشرة بكثرة، لأنها تشترى من الباعة المتجولين.(Rozet; Carette, 1850)

3. المعتقدات وطقوسها

تمثل منطقة القبائل مزيجا بين العلم والمعرفة من جهة والجهل والشعوذات من جهة أخرى، ذلك أن المجتمع كان يتخبط في الخرافات، أما المعرفة فقد كانت محصورة تقريبا في أولئك الذين ارتادوا المدارس والزوايا والذين حتى إن كثر عددهم فلم يحاصروا تلك الأفكار المسلم بها، والمستمدة من الواقع، ذلك أن السكان تعودوا على منح كل ظاهرة سبب، ولو كان غير منطقي وكانوا يقدسون المتعلمين وشيوخ الزوايا لحد إتباعهم في كل ما يطلبون، لكن على العموم فقد رتبوا حياتهم على معتقدات كثيرة منطقية وغير منطقية تلاءم واقعهم وبالخصوص النساء منهم اللواتي كنا متمسكات بمثل هذه المعتقدات لحد التقديس منها:

1.3 الاعتقاد ببعض الأشهر والأيام

كان السكان يعتقدون في حدوث شر أو خير فيها، فإن كان خيرا يستحب القيام بالأعمال فيؤجل كل شيء لحين حلوله وإن كان شرا يحذرون من القيام به، وإن حدث

8- لا تعطى هذه الحلي إلا للفتاة الكبرى في العائلة، ولا تعطى لأخواتها أبدا، وإذا لم تتزوج الفتاة الكبرى يبقى في البيت، ولا يمنح لأحد إلا لابنة أخيها الكبرى عند زفافها وهي العادة التي بقيت دارجة قبل سنوات فقط في منطقة القبائل.

9- يقال أن سبب منح العروس حزام ثامنقوشت عريض أن المشكلة في العروس نفسها ذلك أن الأحزمة نفسها عند كل النساء إلا أن العروس تكون صغيرة حينما تتزوج، لذلك تظهر وكأنها تضع حزاما عريضا جدا لدرجة أنها تكاد تقع عن خصرها، والسبب في ذلك إنها لن تغير بأخرى لذلك تقدم لها عريضة لأنها سوف تكبر ويتغير شكل جسمها، فتصبح مناسبة لها.

أن قام شخص بعمل ما في الأشهر أو الأيام المنبوذة فإنه سينتظر عاقبة غير سارة لذلك خصوصا إن كان الأمر يتعلق بعائلتهم فمن ذلك نجد أنهم على العموم يعتقدون أن شهر ماي هو شهر المصائب فكل أعمالهم في هذا الشهر ستفشل بالتأكيد وإن عواقب هذا الشهر لا تصطحب معها إلا الشؤم[10] وقد بالغوا في خوفهم من هذا الشهر لدرجة أنه إذا تم البدء في عمل ما في شهر أفريل ولم ينته، يوقف إلى غاية مرور شهر المصائب وحلول شهر جوان ليكملوه(Rahmani,1935)، وهكذا تتوقف كل الأعمال في منطقة القبائل شهرا كاملا فلا يقوم السكان بأدنى عمل بل يستهلكون فقط ما خزّنوه من أجل هذا الشهر المشئوم، فمن الاعتقادات التي يؤمنون بها ما يلي:

- لا يتزوجون في شهر ماي، ففي اعتقادهم العروس تصطحب معها سلسلة من المصائب، حتى أن العائلة التي تدخلها عروس في ماي يدخلها الموت فتباد ماشيتهم على كثرتها، ويموت الأعضاء الجدد -الأطفال -في العائلة وإذا ما توالت المصائب على منزل ما، لا ينفك الناس يعلقون بعبارة" :كأنه زواج شهر ماي"[11].

-لا يصنعون المكانس في شهر ماي ولا يحضرون المادة الأولية لصنعها إطلاقا في هذا الشهر، إنما يقومون بتلك العلمية في شهر أفريل فيذهبون إلى الجبال في جو بهيج من 15 إلى 20 شخصا بعد تحديد موعد للذهاب، فيلبسن أجمل الثياب ويتزين بوضع الكحل على العينين وينظفن أسنانهن بورق نبات الجوز ويخضّبن أياديهن بالحّناء ويعلقن المجوهرات والحلي الفضية، ويمشين في الجبال وهن يزغردن وعند الوصول يقطعن هذه النبتة بالسكين[12]، ويحملن هذه النباتات ويعدن على نفس الطريقة الأولى، وفي اعتقادهم أن الفرح العفوي يجلب لهم السعادة لأن المكانس ستأخذ الحزن وتحضر معها الفرح، ويحضر عليهن البحث عن هذه النبتة في شهر ماي لأن المواشي ستموت مباشرة بعد هذا الخوف، وإن لم تمت فإنها لن تعطي الحليب ولا الجبن، لذلك فهم يقتلونها في شهر أفريل، وينسون في جوان كل الأحزان التي جلبها شهر ماي، وإذا ما توالت المصائب قيل" إنها مكنسة شهر ماي."

10- لا تزال هذه الفكرة راسخة في عقول الناس بنفس التفاصيل.

11- يعتقد الناس أن زواج ماي لن يطول وان العائلة التي أقيم فيها لن ترى السعادة أبدا.

12- تسمى هذه النبتة باسم الدوم ثيقزظمث.

-عدم تخصيص البيض للفقس في شهر ماي لأن كل البيض سيفسد قبل أن يفقس وإذا فقس تتوالى المصائب على ذلك البيت[13]، ويتم اختيار اليوم المشمس لأنه في اعتقادهم الفراخ لن تكون مستريحة في البيض، كما أنها ستحس بالبرد إذا كان اليوم ممطرا فلا تخرج من بيضها، لذلك تردد المرأة ما يلي:

لا تخافي يا صغار الدجاج، ستكون هناك رعود

الكثير من الدقيق الذي نطحنه، الدجاج سيخرج.

أما في شهر ماي فحتى إن فقس البيض فتلك الفراخ هي مظهر للمصائب التي ستلحق بالبيت، فيصبح منبوذا من الناس ولا يدخله أحد لأنه يحوي دجاج ماي، أما بالنسبة للدجاج فإنه يتجول في البيت كل من يمر يضربه ويحاول إخراجه من البيت ولا يؤكل بيضه ولا لحمه(Rahmani,1935).

-الجدران لا تبنى في ماي، حيث أن بناءها يحتاج إلى روث البقر والتراب حيث يدمجان مع بعضهما، ليوضع في فتحات أغصان الأشجار الممثلة لهيكل البيت من أجل غلقها لكن من اعتقادهم أن هذا المزيج لا يلتصق في شهر ماي(Rahmani, 1935) لذلك لا يكتمل البيت[14] الذي أهمل فيه فيكون وكأنه يوم طرد كل الشرور التي دخلت إليه بواسطة المكنسة التي صنعوها في شهر أفريل لهذه الغاية.

- صنع الفخار هو من أولويات الحياة في منطقة القبائل فلا يخلو بيت من مجموعة من الأواني والجرار لتخزين المياه والزيت وكذا المحاصيل الجافة، لذلك كان على النساء جمع المادة المستعملة لصنع هذه اللوازم، التي هي الطين، لكن في اعتقادهم أن جمعها في شهر ماي وصنعها في هذا الشهر لن يحمل لصاحبها أية فائدة فالجرار التي سيصنعها ويخزن فيها الدقيق أو الزبدة ستنكسر ويضيع ما فيها، لأنها ستقع

13- يعتقد الناس انه قبل أن يفقس بيض شهر ماي يكون قد توفي احد أفراد العائلة.

14- تناولت الالسن سبب عدم رغبة النساء في البنا في شهر ماي، وهو أن السبب ما جرى لامرأة خرجت في شهر ماي لجلب الطين الذي ستمزجه بروث الحيوانات من اجل إعادة طلي بيتها، وخلال هذه العملية وجدت جرة من النقود فعادت بها ولم تحضر الطين الذي خرجت من اجله، فما كان من زوجها إلا أن أخذه منها وبعدها تزوج عليها بامرأة أخرى، لذلك تناقلت النساء هذه القصة حتى لا تخرج أية واحدة في شهر ماي لجلب الطين حتى لا تلقى مصير تلك المرأة.

على التراب فتفسد أو يضيع منها الكثير. كما أنهم لا يجمعون الطين الأبيض في ماي إطلاقا لأنه لا يلتصق والجدار التي سيصنعونها لا تصبح بيضاء اللون، أما طلاؤها فإنهم لا يشترونه في ماي، لأنه لن يتماسك لأنه سيصبح مثل الماء غير صلب، وعند استخدامه يشكل طبقات فوق الطلاء مما يجعل تلك الجرار غير حسنة المظهر لأنها ملساء، وقد بالغوا في اعتقادهم هذا لدرجة أن التي تفكر في صنعها وهيأت لذلك على أن تبدأ العملية في شهر آخر غير ماي تنكسر جرارها أو أي شيء تصنعه من الفخار مباشرة عند وضعها في الفرن (Slimane Rahmani , 1935).

-لا يتيم تنظيف البيت إطلاقا في ماي، أو حتى تبييض الجدران بالجير أو الطين الأبيض وإلا ستدخل المصائب ذلك البيت، فيترك على حاله سواء دخلته العناكب ونسجت بيوتا لها أو لا، ويكون التنظيف سطحيا فقط، وبعد انتهاء هذا الشهر والتأكد من انتهائه يتم تنظيف البيت تنظيفا كاملا، ويتم تبييضه، وإصلاح كل ما تخرب في ذلك الشهر.

-لا يتم بدء نسيج في شهر ماي أبدا لأن كل النساء اللائي يشاركن في هذا العمل أو في نسيج البرانس، أو الأغطية يصبن بالأمراض بل وحتى الرجل الذي من المفروض أن يلبس هذا البرنس الذي تنسجه المرأة، يموت فجأة قبل أن تتم المرأة من حياكته.

بالنسبة لبرنس الطفل المولود، فحسب التقاليد تتشارك النساء في صنعه يدا بيد، ويحاولن ما استطعن إطالة صناعته حتى يعيش الولد عمرا طويلا، لذلك لا يستعجلن في ذلك وإذا حضر شهر ما يتوقف عن ذلك نهائيا(Rahmani, 1937).

-لا يتم إخراج المواشي للرعي في ماي إطلاقا فهي تبقى في إسطبلاتها أو أكواخها إلى حين نهاية الشهر، بعدما تكون قد رعت شهرا كاملا في أفريل حيث يتم إخراجها كل يوم صباحا في الأيام المشمسة ويتم إعادتها عند منتصف النهار حيث الحرارة الشديدة تضر بها وإلى حين نهاية الشهر، ثم يدخلونها في شهر ماي دون خروج إطلاقا ومن قام بالرعي في هذا الشهر الذي يجلب الشؤم فقط، فإن الأغنام عنده تموت، والأبقار لا تعطي الحليب، والثيران تمرض(Rahmani,1935).

كما أن في اعتقاد السكان هناك أشهر أحسن من الأخرى مثلما هو عند كل المسلمين، فيما يخص شهر رمضان الكريم، حيث لا يجب أن يشكو شخص مات له أحد أقربائه

أو أهله، إذا مات في رمضان لأنه في هذا الشهر فأبواب الجنة مفتوحة وأبواب جهنم كلها مغلقة لذلك فعيب عليه أن يشكو رحيل هذا الشخص، وبالإضافة لكل هذا ففي اعتقاد سكان القبائل هناك اختلاف في الأيام فبعضها صنف كأيام مريحة وبعضها كأيام الشؤم والمصائب لذلك فكانوا يبدؤون أي عمل في الأيام المريحة، فعند السفر مثلا يتم اختيار يوم الاثنين أو الخميس أو السبت حتى يكون السفر آمنا وجيّدا، لأنه في اعتقادهم السفر يوم الأحد أو الأربعاء أو الجمعة يجلب القلق الكبير لصاحبه، حتى أنه لن يفارقه طوال سفره(Daumas; fabar,1937). عند جمع البيض من أجل التفقيس تختار النساء يوم الأحد أو الاثنين أو الأربعاء لهذه العملية حتى تنجح ويفقس جميع البيض ولا يخترن أبدا يوم السبت لانه يوم شؤم والفراخ تبقى متراخية داخل البيض، عدا الأيام الثلاثة مع اشتراط اختيار اليوم المشمس فيها(Rahmani, 1935).

من أجل الاحتفال بزفاف شخص ما يجب أن يختار يوم الخميس لذلك لأن اليوم الذي يلي يوم الخميس هو يوم عطلة عند المسلمين كافة، لذلك فإن العروس والنساء على العموم لا يخرجن لأشغالهن فلا يتعطل أحد(Daumas; fabar,1937)، كما أن العروس في هذا اليوم لن تقوم بأي شيء على العكس لو كان اليوم سيئا مثلا، فالكل يخرج لأشغاله إلى السوق أو الحقل أو لأي حرفة أو شغل يتقنه لذا تجد العروس نفسها مضطرة لبدأ العمل من يومها الأول في بيت زوجها[15].

بالنسبة للحروب في منطقة القبائل فهي على الدوام تحدث لأن الأسباب كثيرة والقوانين أكثر لكن المنتهكون لها لا يعاقبون أحيانا من شيخ القبيلة وأمين الأمناء إنما الضحية هو بنفسه من يطلب حقه من الجاني وعند يكثر الحلفاء وتكثر الصفوف تندلع حرب أهلية بينهم لذلك فقد كان مصطلح الحرب شيئا جد عادي، الكل يطلب حقه والذي لا يطلبه يبقى منبوذا بين الناس، لكن وحتى عند الحرب تتدخل المعتقدات فقد كان الناس يتقاتلون في كل الأيام عدا الثلاثاء فلا يبدؤون قتالهم إطلاقا يوم الثلاثاء لأنه في اعتقادهم من حارب يوم الثلاثاء ولم يسلم ولم ينجو خاصة أن الرجل

15- من عادة سكان المنطقة ان تخرج العروس للحقل أو لجلب الماء من الينابيع أو جني الثمار على انواعها مباشرة بعد اليوم السابع لها في ذلك البيت – انظر مخطوط سيرة الزواوة لمجهول.

القبائلي معروف أنه كالقناص يقتل ويراوغ بسهولة، لذلك فهم يخرجون للحرب وفي ذهنهم فكرة أنهم لا محالة سيعودون، لكن يوم الثلاثاء لا نجاة إطلاقا(Daumas; fabar,1937)،فكانت الحرب تبدأ عندما يصل يوم الثلاثاء يتوقف القتال وكل يعود لقبيلته أو قريته، وعند نهاية اليوم ودخول يوم الأربعاء يستأنفون القتال من جديد بنفس القوة والحماس.

2.3 الاعتقاد بتميز بعض الحيوانات

مجتمع القبائل يعيش وسط تقاليد وأعراف ومعتقدات لم يغيرها حتى الإسلام، نتجت عن نقص الوعي الديني خصوصا لدى النساء، لذلك فقد أعطى كل شيء يتحرك أو لا يتحرك رمزا معينا(Rahmani , 1935)، فحتى الحيوانات مصنفة بين جالبة خير وجالبة شؤم وشر، فمثلا كانت رؤية الثعلب كأول شيء يراه صباحا سينتظر خبرا سارا أو مفاجأة تجلب له الخير (Daumas; fabar,1937)، فيكون نهاره كله جيدا وحتى نفسيته هو تكون مرتاحة منشرحة. كذلك عند رؤية الغرابين[16] مباشرة عند الانطلاق للسفر فإن ذلك يمثل أمارة لسفر مزدهر لذلك فالشخص المسافر لا يخاف المجهول لأنه أخذ حصانة الغرابين، وعكس هذا إن لمح غرابا لوحده فإنه يعود أدراجه ولا يسافر أو يغامر بالسفر، وهو عالم بحصول مكروه له أثناء طريقه، فيكون قلقا في كل دقيقة تمر عليه.

وهي نفس الحالة التي تصيبه إذا لمح أرنبا بريا في المساء عند عودته من السوق أو الحقل أو الصيد فإنه يعتقد مباشرة أن هذا المساء لن يمر على خير وسيصله خبر سيئ أو تحدث له مصيبة ما(Daumas; fabar,1937) لذلك يظل حال الأيام في منطقة القبائل متوقفا على نوع الحيوان الذي يصادفه السكان هناك، وحدوث المصائب أو الشرور سببه مصادفة تلك الحيوانات الجالبة للضرر، ونفس الشيء إذا دخل الفرح لبيت ما فيكون في الغالب تأويله إما دخول حيوان جالب للحظ أو توقفه على سقف البيت أو حتى مصادفته في الطريق.

16- في العادة الغربان تتنقل زوجين، زوجين

3.3 الاعتقاد بالشفاء عن طريق بعض الطقوس

تمثل منطقة القبائل على طبيعتها مكانا ملائما للأمراض ومليئا بمضاداتها فكل من يسكن هناك يتعلم طرق مداواة نفسه بنفسه، أو مجمل الأعشاب الضارة التي يتجنبها من أجله أو من أجل مواشيه[17]، ويتعرف على الأعشاب التي يستفيد منها.

لكن ومع كل هذه المعرفة طغت في المنطقة في ذلك الوقت معتقدات كثيرة كان بعضها منافيا لكل هذه المعارف والمكتسبات، كالاعتقاد بقدرة بعض الطقوس من خلال ترديد بعض الأشعار إن صح التعبير، واستخدام بعض المكونات مثل الملح أو الزيت على شفاء مريض ما، فعلى سبيل المثال عندما يمرض طفل يداوى بالأعشاب التي توضع على مناطق المرض أو تشرب كعصير ثم تقوم الأم ببعض الطقوس لطرد الأذى وذلك بإحضار أربع حبات من الملح فتديرها على رأس هذا الطفل سبع مرات وعند الدورة السابعة تمتلئ في اعتقادهم حبات الملح بالمرض بعدها تأخذ الحبات الأربع لترميها بالترتيب في الأماكن التي تعرفها هي والتي لن تفشي مكانها لأحد حتى لا يعود المرض لولدها، لذلك تضع الحبة الأولى في الطاحونة وتقول:

الكلام الخبيث طحنته الطاحونة

وترمي الثانية في الماء وهي تقول:

فلتذب العين ذوبان الملح في الماء

ثم ترمي الثالثة على جمر الأثافي قائلة:

تقرقع، تقرقع يا ملح غرقت عين الحاسد في البحر

أما الرابعة فتلقيها وراء كتفها قائلة:

لقد رميتك في حضيرة الوحوش ابني سينام في عافية

وهنا تنتهي مهمّة الأم حينما ترمي الحبات الأربع أما الصبي فيكون الألم قد غادر جسمه(نسيب، 2007)، حتى أنه في اعتقادهم هذه الطقوس أقوى مفعولا من الأعشاب التي وضعت على مناطق المرض أو ذلك العصير المشروب إذا كان المرض يؤلمه في بطنه مثلا.

17- في منطقة القبائل هناك العديد من أنواع النباتات التي تمثل بعض منها طعاما للسكان تطبخ وتأكل أو تضاف كمحسنات للأكل، وهناك أنواع أخرى تستعمل شرابا للتداوي او تصنع منها الأدوية بعد طحنها أو تستعمل ككمادات موضعية

4.3 مرحلة الحياة الزوجية

حتى تصبح المرأة حاملا بأسرع ما يمكن يعتقد سكان القبائل بما يلي:

مساء الخطبة وليلة قبل العرس يتم وضع الحّناء لكل من العريسين، كل واحد عند عائلته ويضاف إلى الحناء ست حبات من الجوز، وست بيضات حيث يجب أن يكون العدد دائما زوجيا، أما حبات الجوز والبيض فتغطى لأنها تحتوي على بذرة الحياة، حيث تسحب كل الحبات من الإناء وتمسح بيض الليلة الأولى مطهي بقشوره يقدّم إلى الزوجين الجديدين أو إلى أشخاص متزوجين من قبل، حيث يمنع منعا باتا لغير المتزوجين من تذوقه وإلا ستبقى في اعتقاداتهم عازبة، أما العروس فتضع بجانبها بيضا وجوزا ليلة الحناء حتى تقدمه لزوجها ليلة الدخلة (Rahmani, 1937)، وحتى تبعد شر النساء الحاسدات ويدفن باقي الحناء عند جذع الرمان أو يرمى في الماء لأن الماء هو الأمان وخلال الحفلتين يوضع في حجر العروس طفل صغير ذكر حتى يكون أطفالها ذكورا، على أن تطلي الحناء أولا للطفل الصغير وإلا فإنه قد لا يتزوج في المستقبل ويكون سيّء الحظ، وقد جرت العادة في بعض جهات القبائل أن يجلس العروسان على نوع من الفول، لأن نباته يعطي الكثير من الأزهار التي تعطي الكثير من البذور، لذا فاتحادهما سيعطي جيلا جديدا وعند وصول العروس لبيت زوجها تجلس على القمح والفول الموجودين على سجّادة والتي تكون مقعدا للعروس لمدة أربعة أيام، هذا ويوضع بينهما وبين الناس حجاب يحميها من النظرات ولا يحق إلا لأم الزوج أو أخته برؤيتها، ويوضع طفل صغير في حجرها مرة ثانية، لكن لمدة وجيزة[18].

في صبيحة اليوم الثاني أو الرابع قبل أن تأخذ حماما يقوم شاب من العائلة قد يكون أخ الزوج بربط خصرها بخيط غليظ من الصوف ثم تذهب برفقة النساء إلى نبع الماء أو مجرى المياه في القبيلة، ووجهها مغطى بمنديل من الحرير وكذلك تغطى الجرة، حتى تحضر البركة إلى البيت، وتأخذ معها عجينة مصنوع من مسحوق القمح بها القليل من الزيت والملح وتوزعها هناك على عدد زوجي من الأطفال الذين قد شربوا من يدها ماء من العين، وهذا لاعتقادهم بأنها ستصبح أما خصبة غير عاقر، وتقوم العجوز بجمع

18- لا تزال هذه العادة موجودة لحد الآن في بعض أرياف منطقة القبائل حيث تأخذ العروس هذه الحبات من الفول إلى منبع الماء وترميها مع مجرى الماء وهنا يقوم الأطفال بأخذها وزراعتها.

الفول والقمح الذين جلست عليهما العروس وتغليها ثم تضعها في مصفاة لتتقطر، وترشها بالملح ثم توزعها على الحاضرين، بالنسبة للذين يأكلون هذه الأكلة التي تعدها العجوز يقومون بوضع القليل من مسحوق القمح والشعير في الصحون عند إعادتها(Rahmani , 1937).

4. العادات والتقاليد وطقوسها

العادات في منطقة القبائل مرتبطة أساسا بالأعراف القديمة، وهي جزء من معتقداتهم، حتى أن عاداتهم مستمدة من اعتقادات معينة، فكل خطوة وكل تصرف له سبب ومعتقد معين، خاصة وأن سكان القبائل وبالخصوص النساء منهم متشبّثات جدا بمواضيع الغيبيات، فأي تصرف منهن يكون من أجل جلب الحظ والخير أو طرد الشر، لذلك لديهن عادات معينة لا يحدن عنها خوفا من الفأل السيئ في حياتهن اليومية وعند المناسبات، لكن على العموم العادات اليومية أحيانا مختلفة بين سكان القبائل في بعض التفاصيل الصغيرة، لكنها موحدة فيما يخص المناسبات الكبيرة.

من عادات بعض سكان القبائل ضرب نسائهم بالعصا واليد ضربا شديدا وكذلك إذا كان للرجل أخ صغير أو كبير فإن له الحق في ضربها أيضا حتى أن البعض منهم إذا لم يمتلكوا هذا الحق يفترقون فيما بينهم، ويضطرون إلى تقسيم تركتهم وكل يسكن لوحده، بل وأكثر من ذلك فإن أهل المرأة التي ضربت إذا سمعوا بأن زوجها يضربها فإنهم لا يحتجون، بل يثنون على هذا الزوج، وإذا ذهبت لبيت والديها يزيدها ضربا ويعيدها لزوجها رغم أنفها (مجهول، 3012).

لكن على العموم ليس كل النساء يعاملن بهذه الطريقة، فالضرب عند البعض هي الوسيلة النهائية لحل المشكلات (Daumas; fabar,1937)، كما أنهم يعتبرون الزوجة أساس المنزل وكلما أتقنت دورها في البيت علا شأنها وزادت قدرتها على التأثير في زوجها،خصوصا وأن رجال القبائل ليسوا من هواة تعدد الزوجات لذا يكونون حريصين على الوفاء، لكنهم شديد والعقاب عند المخالفة بارتكاب الأخطاء التي تمس شرفهم (كاربخال، 1989)، فكثيرا ما تحدث الحروب بسبب النساء في الجبال، خصوصا إذا استنجدت المرأة بوالديها، وكانا ينتميان لقبيلة من القبائل المندفعة التي لا تعرف حلولا سوى بالقتل والحروب، فيجب استعادة مكانتها بين القبائل (كاربخال، 1989)، ذلك أنه في

اعتقادهم أن إهانة شخص من تلك القبيلة استخفاف بهم، خصوصا إذا كان الأمر مثلما يحدث في بعض الجبال حيث يرث الأخ أو ابن العم زوجة المتوفى مثلما يرث أملاكه، فإن لم تكن له بها حاجة يزوجها من آخر، ويأخذ صداقها بدل الصداق الذي أخذته من أخيه أو ابن عمه. (المدني، (د.ت))

يكمن الاختلاف كذلك في الميول إلى الرقص والغناء والموسيقى فالبعض يحبون العزف على الناي، فإن عزف رجل في بيته رقص الكل رجالا ونساء، آباء وأبناء أعمام، حتى أن الرقصات تنفذ بالسلاح(Daumas; fabar,1937). لكن هنالك من القبائل الأخرى من تمنع الغناء تماما ولو كان ذلك في وليمة ما، لأنه عمل جد مستقبح فهو يدعو إلى الانحلال. (الزواوي، 2005). إضافة لهذا هناك عادات موحدة وتكون عادة في المناسبات الكبيرة سواء السارة منها أو المزعجة، ففي كلاهما لسكان القبائل عادات معينة لاستقبال هذا الحدث لا يحيدون عنها إطلاقا، وإذا تجاهل أحدهم بعض التفاصيل تشاءم الكل من احتفاله ذاك، وانتظروا مصيبة ما ستلحق به، وبهم لأنهم شاركوه هذا الاحتفال، لذلك وتجّنبا للمصائب فهم يحرصون كل الحرص على مرور المناسبة وفق أعرافهم وتقاليده، من هذه الاحتفالات.

1.4 الختان

من عادات سكان القبائل أنه لما يبلغ الولد خمسة أو ستة أعوام يركبونه على بغل ويطوفون به في الأسواق ليخبروا الناس بيوم ختانه(مجهول، 3012) وفي الغالب يبرمجون الحفل الذي سيقام على شرفه ما بين 15 أوت و 15نوفمبر فيختارون الفترات المضيئة بضوء القمر، والتي تتزامن مع انتهاء الفلاحين من جمع محاصيلهم الزراعية، وبذلك يتمكنون من تحمل نفقات الاحتفال، وكذلك اعتدال الجو الذي يسمح بتنظيم الحفل في الهواء الطلق، ويساعد على الشفاء العاجل (فراد، 2008).

يبدأ الحفل بموكب الطفل الراكب على حمار، ومعه جماعة لضرب الطبل والعزف على الناي(مجهول، 3012) والتغني بغناء حاد مرتفع، وهو موكب طويل والطفل وسطه وقد زين بعصابات حمراء ملمعة كالذهب، فيبدأ الرقص الذي يعتمد على القدمين والرجلين أكثر بقليل من الرقص الحضري المرافق للزغاريد والموسيقى والغناء والكل يشارك في الحفل(فراد، 2008).

أما فيما يخص الختان بحد ذاته، فالأعراف عندهم تقضي بإرسال بنات صغيرات لجلب التراب في صحن فخاري من تربة قبة ولي القرية، إن كان قريبا أو من نقطة التماس بين حقلين أو من تربة تينة ذات الثمار السوداء، وفي طريقهن تردد هؤلاء الفتيات في ذهابهن وإيابهن أغاني الفرح، وهذا من أجل إعلان الفرح في القرية وعند إجراء عملية الختان، توضع القفلة المقطوعة في تربة الصحن الذي جلبنه من إحدى تلك النقاط ليعدن ثانية لدفن ما في الصحن في المكان الذي جلبنه منه، وبعد رجوعهن بالصحن الفارغ تنظم مباراة للرماية إن كان الحفل بالبارود، فيتلقى الفائز هدية، والتي تختلف من حفل لأخر حسب قدرة الأسرة المنظمة له، وفي الغالب تتراوح بين كبش أو دجاجة أو مبلغ مالي رمزي، أما إذا كان الحفل صامتا من دون بارود، لظروف ما، فإن الصحن هو الذي يصبح هدفا للأطفال الذين يرمونه بالحجارة قصد تكسيره حتى يكون الطفل محميا من شعوذة الساحرات(فراد، 2008).

هذا ويرافق الحفل عادات معينة حينما يحضرها كبار شيوخ القبائل الذين يتنافسون على تقديم الهدايا للطفل ذلك أن عليهم أن يظهروا كرما بالغا، بين الناس الكثيرين الجالسين هناك، ويتم تقديم الهدايا بشكل علني فيقف صاحب الفوطة المكلف بجمع المال، ويضع المال المقدم في هذه الفوطة الموضوعة في وسط البيت وسط الحاضرين، ويعلن صاحب الهدية المالية، ويدعو الناس إلى الكرم، ففي البداية تكون الهدايا صغيرة وثم تكبر، هذا المكلف بجمعها يعلن قائلا": لقد تبرع فلان بكذا جازاه الله خيرا "فتعلو زغاريد النساء تحية للرجل الكريم فيبدأ الشيوخ بتقديم هداياهم الثمينة، فيبدأ التنافس وتبدأ الزغاريد بالتعالي، ويكفهر الجو ويمتلئ بالغضب وتبدأ أكياس النقود تسقط الواحدة تلو الأخرى وكل واحدة أعلى من الثانية ولا ينتهي الحفل إلى حين يتصادف سقوط كيسين بهما نفس المبلغ في نفس الوقت. (هاينريش فون مالتسان، 1979).

هذا وتتكرر هذه العملية في حفل ختان آخر، وهكذا هي عاداتهم في كل حفل، وكلما كان صاحبه ذا شأن كبر الحفل وحضرته فئات المجتمع المهمة من كل الأعراش ليكثر التنافس أكثر بحضورهم فالكل يظهر كلام عرشه، ولا يرضى بأن يظهر بأقل من أولئك الجالسين معه، ليصبح الحفل قضية شرف العرش بكامله، وفي العادة تلك النقود المقدمة لصاحب الحفل يعاد منها ما هو زائد عن الهدايا المقدمة من طرفه في حفلاته

التي أقامها، ومعها زيادة كتعبير عن شكره كما أضافه من شرف له بحضوره ويرافق كل هذا الحفل وليمة كبيرة للحاضرين مكونة كما هو معتاد من الكسكس المسقى باللحم والخضر وأحيانا العسل(فراد، 2008).

2.4 الزواج

يتم الزواج في منطقة القبائل بين الصبيان ذلك أن البنت تتزوج وهي لم تتجاوز سن التاسعة أو العاشرة، فتزف لزوج في الرابعة أو الخامسة عشر(المدني، (د.ت)) باختيار الأب، لكن يحدث أحيانا أن يختار الشاب بنفسه الفتاة التي يريدها زوجة له، ومن أجل ذلك يخبر أحد أصدقائه برغبته هذه، فيبحث هذا الأخير عن والد الفتاة، ويصارحه برغبة صديقه، فيحدد له المهر(Daumas; fabar,1937) وبذلك إن كان الشاب أو عائلته قادرين على سداده، يتم العرس وإلا فإنه يفاوض في هذا لمهر أو يبحث عن امرأة أخرى، عند ذلك يأتي دور الوالد ليخطبها بشكل رسمي، حيث يأخذ معه جماعة من المرابطين والمشايخ، حيث يقوم والد الفتاة بواجب الضيافة وهو كالعادة تقديم الكسكس كطعام، حيث من واجبهم أن يأكلوه بينهم وعندما ينهون طعامهم هذا يشكرونه وكأنهم لم يأكلوا مثله، عندها يأتي دور الاتفاق على المهر حيث يتأتى دور المرابطين للعمل على جعل والد الفتاة يخفض المهر حتى يتيسر على والد الفتى تسديده ذلك لأن أعراف القبائل تجعل من غير القادر على دفع المهر، وعدم القدرة على مصاهرة عائلة ما مدعاة سخرية من الجميع، فلما يقبل المخطب، يضرب مرافقوا والد الفتى البارود في فناء داره ويفترقون(مجهول، 3012).

وبعد أيام يتجه والد الفتى إلى السوق ليشتري الحناء وبعض من الكتان ومحرمة حريرية وقليلا من القمح والسمن والعسل كما يشتري ثورا يذبحه في السوق ويبيع جلده ورأسه ويحمل الباقي إلى دار الفتاة ويبيت هناك ليلة ثم يعود إلى داره كما يشتري اليطغان[19] وبندقية وزوجين من المسدسات ويأخذها إلى منزل الفتاة(Daumas; fabar,1937). وبعد شهر من زيارته لأصهاره يقوم بنفس العملية السابقة فيتجه إلى السوق ويشتري نفس الأشياء ويتجه إليهم ويبيت عندهم ليلة أخرى وبعد ثمانية أيام يتجه إلى السوق

19- سيف تركي محدب وهو سيف في أصله خاص بالتشريفات.

ليشتري الحناء والكتان وبعض الحلي الفضية ونصف ثور ويجمع أعيان قريته، والمرابطين والمشايخ ويتجه الكل نحو بيت الفتاة ومنهم النسوة من أقارب العريس، على أن يترك البعض منهم في البيت لتحضير الوليمة من الكسكس واللحم (مجهول، 3012).

وهكذا يتجه المركب المكون من هؤلاء إضافة ستة رجال مسلحين يحسنون الرماية، حيث يكلفون بحراسة موكب العروس وإضافة لمستهم على الموكب بإطلاق طلقات البارود بين الفينة والأخرى طول طريقهم، بالتناغم مع زغاريد النسوة (فراد، 2008) ووقع أصوات الطبول التي تعلن عن قدومهم(مجهول، 3012) وفي العادة كل قرية لها موسيقاها الخاصة بها (Daumas; fabar,1937). وعند وصولهم إلى قرية العروس يلاقونهم أهلها صفا واحدا فيطلقون طلقة بارود والنساء يزغردن، فينزلون للاستراحة هنيهة، فيقدم لهم الطعام باللحم والسمن والعسل فلما يتموا الأكل يتجه الأب إلى وسط فنائه ويجلس على حصيرة هناك فيدور به المرابطون والمشايخ وجميع من حضر معهم، فيرفع أب العريس المهر بتمامه سب اتفاقهم، ويضعه بالقرب من والد العروس الجالس ثم يطلب منه هذا الأخير أن يرد له بعضا منه فيساعده المرابطون والمشايخ في الدفاع عن طلبه هذا، فإن كان والد العروس ذا فضل وجود يعيد لهم جزءا منه، فإن كان متزمتا ورفض ذلك، يغضب منه المرابطون، لردهم خائبين في طلبهم ويقومون بالدعاء عليه.

وبعد الانتهاء من هذه المسألة يجتمعون فيلقي أحد المرابطين خطبة النكاح، ثم يسأل الأب إن أعطى ابنته فيقول نعم وللخاطب إن قبل أن يقول نعم، فتنتهي القضية بقراءة الفاتحة، كما أن بعض ملاك الأراضي يعلنون عن منحهم لمحصول موضع ما من غرس عنب أو زيتون أو حتى عين ماء لأبنه وأبنائه(مجهول، 3012) وقد جرت العادة في هذه المنطقة أن يأتي حينها دور الرجال المسلحين الذين تم جلبهم ليتنافسوا في الرماية لإصابة هدف محدد، ويكون عادة صغيرا جدا كالبيضة مثلا(فراد، 2008) أو حتى فليفلة أو حجرة مستوية، في حين تقوم النساء بتهيئة العروس للرحيل. (Daumas; fabar,1937)

وتقضي أعرافهم أن الموكب لا ينطلق عائدا إلا إذا تمت إصابة هذا الهدف وبما أن هذه المنافسة تجلب من الجماهير الكثيرين، فإنه من العار على ذلك العرش أو القرية كلها إن لم يستطع رجالها إصابة هدف بسيط في نظرهم، طالما أن الكثير من الرجال تمكنوا

من ذلك، ومن أجل كسر شوكة هؤلاء الضيوف، الذين جاؤوا بموكب العروس يتدخل أحد بالاستعانة بإحدى المشعوذات الساحرات، ويكون في العادة من أهل العروس.

ويكمن السر وراء عدم إصابة الهدف في طقوس تقوم بها الساحرة، فهي تأخذ حبات البيض مثلا والتي اختيرت لتكون هدفا للرماية إلى مقبرة في الليل، وعند الصباح الباكر تعود لتسترجعها أو تقرأ عليها بعض تعاويذها بعد وضعها قرب الأثافي، ثم على سطح المنزل وعند أخذها في الصباح تقرأ عليها عبارة: "تركتكن للنجوم، يسقط عليكن الرصاص فلا يصبكن شيء". إذا أرادت اعتماد طريقة أخرى، فإنها تمرر البيض على جسم فتاة عذراء من رأسها إلى أخمص قدميها ثلاث مرات، فيصبح البيض حسب رغبتها(فراد، 2008).

هكذا وبهذه الطريقة يجرب كل الرجال المهرة حضهم في التسديد فلا يصيب الهدف أحدهم، فيبدأ الهرج والمرج، الضحك والسخرية عليهم وعند استنفاذ كل طاقاتهم يصبح الأمر لديهم مدعاة للشك في تدخل يد ساحرة، لذلك وخفية عن الجميع يرسلون شخصا لينقرها بإبرة لإبطال مفعول هذا السحر، هذا وقد تستمر هذه المنافسة التي تصبح قضية شرف لديهم نصف يوم أو حتى يوما كاملا، فإن استمر الوضع على حاله يستقدم شخص من خارج الموكب من أجل إصابة الهدف، كل هذا والعروس تنتظر نتائج المنافسة التي ستقرر موعد انطلاق الموكب، وحال هذا الأخير بسبب الإهانة التي لقوها في قريتها. كما هو معروف فإن الرجل القبائلي لا ينسى الإهانة لذلك وعند وصول الموكب إلى بيت العريس يستوقفون نزول العروس إلى نهاية المنافسة الجديدة التي ينظمونها لاستعادة أنفتهم بين الأعراش والقرى المجاورة(فراد، 2008).

بعد ذلك تنزل العروس إلى بيت زوجها وعليها لحاف يغطيها فلا يراها أحد، وتدخل البيت، فلا تجتمع النسوة معها إلا عجوز من طرف والديها تحفظها وتكرمها وتنظر في حاجاتها، أما من جاء معها من أقاربها فهم صغيرا وكبيرا يكرمون وتحسن ضيافتهم .ومن العادات في المنطقة أن تحضر العروس العوايد أو الهدايا من جوز مكسر وتمر وحلويات كالسفنج، والبيض لتقدمه لزوجها كأول شيء تفعله، والذي بدوره يقدمه لأصدقائه الذين رافقوه إلى البيت. وهنا فقط هنالك اختلاف بسيط بين سكان الجبال وسكان المدن ذلك أن الرجل في المدينة يلاقي زوجته عند الباب ومعها نسوة، فيمسكها

من يدها ثم يدوس على رجلها اليمنى بشكل خفيف، ويجلسها إلى جانبه الأيمن ثم تأتي امرأة فتقدم له الماء في قدح ليقوم الزوج هو الآخر بجعل المرأة تشرب منه،حيث تكون في هذه الوضعية أدنى منه(مجهول، 3012).

وهو عكس ما ذكر سبنسر فيما يخص الزواج فقد اعتبر ذلك قضية الزوج والزوجة فيحمل كل منهما إلى شفاه الآخر كأسا وذلك بحضور الشهود(وليم سبنسر، 1980)، وهي تقريبا جزء من عادات بعض سكان مدن القبائل، فمن عاداتهم أن العروسين يقدمان إلى بعضهما كأسا للشرب على شرط أن يكون كأس الرجل أعلى من المرأة وعليها أن تشرب دون ملامسة الكأس بشفاهها وفي اعتقادهم هذا يجعل المرأة دائما طائعة وكلمتها أدنى من كلمة الرجل(مجهول، 3012). لكن هذا يكون بعد دخول العروس إلى بيت زوجها الذي يلقاها عند الباب، لكن لا تتلخص عادات الزواج لديهم في حمل هذين الكأسين لأن حفل الزواج كله من بدايته إلى نهايته مبني على عادات وطقوس كثيرة لا يمكن لأي فرد من سكان القبائل تجاهلها.

خاتمة

على العموم كانت حياة المرأة بكل تفاصيلها مرتبطة بتربيتها وتكوينها وصرامة الرجال في التعامل معها،إضافة لتكوينها على أسس معينة أهمها الطاعة، وهذا ليس بالخطأ إنما المبالغة في طاعة الكل تجعل منها عرضة للذل والهوان، فتعمل على إرضاء الكل، ولا أحد يهتم لرضاها، وما يصعب من وضعها هو عدم قدرة والدها على التدخل لتحسين حياتها سواء قناعة منه انه لم تعد تحت وصايته، أو خوفا من الأعراف التي تجبره على ذلك، وبهذا تبقى المرأة إذا كان وضعها الاجتماعي مزريا لفقر أو ترمل تنتظر إحسان أهل قرية زوجها، ولا تستطيع العودة إلى أهلها، لكن عدا عن هذه الحالات تعيش المرأة أم الأولاد الذكور حياة الرفاهية والكرامة، لأنها أم الذكور أم الرجال.

المصادروالمراجع

1.بداك شابحة، (د. ت.). الممارسات السحرية للمجتمع الجزائري، دار السعادة.

2.بن ونيش فريدة، 1976. المجوهرات والحلي في الجزائر، وزارة الإعلام والثقافة، سلسلة الفن والثقافة، الجزائر.

3.جلاوي امحمد، 2001. أشعار شعبية من قبائل جرجرة، قراءة نقدية في كتاب هانوطو، منشورات زرياب، الجزائر.

4.الزواوي أبو يعلى، 2005. تاريخ الزواوة، مراجعة وتعليق سهيل الخالدي، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر.

5.سبنسر وليم، 1980. الجزائر في عهد رياس البحر،تعريب وتعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

6.شالر وليم. 1982. مذكرات وليم شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824 تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

7.شلوصر فندلين، (د.ت.). قسنطينة أيام احمد باي 1832- 1837، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو (ش.و.ن.ت)، الجزائر .

8.فراد ارزقي، 2008. جهود سليمان رحماني في تدوين طبائع أهل اوقاس ببجاية، جريدة الشروق الاثنين 31 مارس، العدد 2263، الحلقة الثانية.

9.فون مالتسان هاينريش، 1979. ثلاث سنوات في شمالي غربي إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

10. مارمول كاربخال، 1989. إفريقيا، ترجمة محمد حجي واخرون ج2، المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط.

11. مجهول. كيفية سيرة الزواوة، مخطوط تحت رقم3012 ، المكتبة الوطنية، الجزائر، ورقة رقم01

12. مخالفة عوف، 2007، تاريخ الالبسة التقليدية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر.

13. المدني احمد توفيق، (د.ت.). محمد باشا عثمان داي الجزائر 1766- 1791: سيرته، حروبه، أعماله نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

14. نسيب يوسف. 2007. مختارات من الشعر الشعبي، ترجمة لخضر سيفر، مراجعة عبد القادر عبدي، محمد يحياتن، حميد بوحبيب، دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع، الجزائر.

15. Camp Gabriel, 1980. *Les berbères mémoires et identité*, 1ere publication, édition des hespéridés.

16. Daumas M.; Fabar M., 1847. *La grande Kabylie: étude historique*, libraires de l'université royale de France.

17. Hanotaux A.; letourneux A., (s.d.). *La kabylie et les coutumes kabyles*, tome 1, Paris, imprimerie nationale M D G G G L XXII.

18. Germaine Laoust – Chantréaux, 1990. *Kabylie coté femmes la vie féminine à Ait Hichem 1937-1939,* ouvrage publie avec le concours du centre national des lettres, imprimerie tody Quercy.
19. Rozet; Carette, 1850. *Algérie*, Paris Firmin didot frères, édition imprimeurs de l'institut.
20. Rahmani Slimane, 1935. "Le moi de mai chez les kabyles" ? *R-A,* n° 76.
21. Rahmani Slimane, 1937. "La grossesse et la naissance au cap Aokas", *R.A* n°81, 1ére partie année.